طه حسين
ومجلة الكاتب المصرى

سِفْرٌ نفيس ، فى حقبة ناهضة ثقافيًا ، رغم سوانح الأفول السياسى التى كانت تلوح فى الأفق ، منذرة ومتوعدة ، يناهضها الناس ، متطلعين إلى بشائر التحول، وصامدين - بفضل النهضة الثقافية - وصمودهم لا يقل روعةً عن لحظات زهوهم، كانت لحظات نهضة صامدة تمثلها أوفى تمثيل كوكبة لامعة ، حماستها حكمة ، وحكمتها حماسة بعد نضج السن واستحصاد الملكات ، تحمل فى أصلابها عراقة التراث ونبالته ، وتشرئب إلى المدى اللاحب والأفق الرحب ، وكأنها رأت أن تعوض الانكسارات السياسية بكثير من الوهج المتزن المضئ . . ثلة كريمة على اختلاف منازعها ، وثقافاتها ، مرتئية أن الثقافة أصفى نورا ، وأهدى سبيلا ، حين تشتجر نزعات السياسة ، وأهواء الحزبية الضيقة ، تحمل اعتزازًاربما لم يتسن نظيره للأجيال التالية مجمعة على هدف كريم ، وطريق قاصد ، تمثلت فى أحمد لطفى السيد ، والعقاد وطه حسين ،والجارم والزيات والمازنى ، وشعراء أبوللو، وهيكل باشا ، وإخوان هذا الطراز .

وكان هؤلاء - على تفاوت - قد قرت لهم فكرة النهضة بعد شرة الشباب وحدته ، وإن لم تخل من النضال الذى لم تتخل عنه الأمة آنذاك ، وكان طه حسين - كما كان كثير من رصفائه - يشتعل حماسةً وتوقدًا، يناجز ويصارع ، واثقا شديد الثقة ، تنتاشه السهام فتزيده جلدًا ، يوقف - من قبل - عن التدريس فى الجامعة فلا يهن ولا يستخذى ، وحين تقاعد سنة ١٩٤٤ بسبب مقاله «القلب المغلق»لا يهادن ؛ لأن طبيعته مجبولة على القلق وإثارته «على قلق كأن الريح تحتى» ، كما يقول صديقه أبو الطيب .

فى تلك الأثناء يصدر مجلة «الكاتب المصرى» بعد انتهاء الحرب ، منذ أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨ . ولهذا قصة تروى : (نعتمد فى هذه الرواية على

مقدمة د. عبد العزيز شرف لمجلدات المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

«فى سنة ١٩٤٥ تكونت شركة الكاتب المصرى للطبع والنشر والأدوات الكتابية، وهى شركة مساهمة مصرية ، كان يمتلكها سبعة أشخاص من آل هرارى الذين كانوا من الأسر اليهودية فى مصر ، ولم يأت اسم أحدهم فى أى تجمع صهيونى طوال وجودهم فى البلاد ، وعهدت الشركة إلى الدكتور طه حسين الإشراف على نشاطها الثقافى ، حين قررت إنشاء دار للنشر ومجلة شهرية باسمها» (مقدمة د. شرف ص ٢٣) .

وفى مستهل العدد الأول من المجلة «برنامج» يحدد خطتها ، والهدف منها ، ومهور بتوقيع «الكاتب المصرى» أو كما نقول الآن «المحرر» ، وواضح أنه بقلم طه حسين ، فيه سماته وأسلوبه يقول فى بعضه : وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسمًا لها وشعارًا ، وهذه المجلة تستمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ، ومن المهمة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الإنسانية العامة .

ثم أخذ البرنامج يرسم سبق مصر الثقافى ، وهى من بلاد البحر الأبيض المتوسط، ذات صلات وشيجة بأمم الحضارة ، ونهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شئون الثقافة والسياسة والاقتصاد ، ومضى يرصد دورها القديم من أيام اليونان مستأنفة دورها مع دمشق وبغداد وقرطبة ، وتمضى الآن بارزة الدور مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله .

وملموح فى هذه الكلمات تحديد موقع مصر ؛ حيث هى من بلدان البحر المتوسط كما حدده طه حسين فى «مستقبل الثقافة» وإن كان هنا يذكر إسهامها مع دمشق وبغداد وقرطبة المسلمة ، وهو رأى يتسم بكثير من الاتزان ، وتأخذ المجلة طابع طه حسين عامة من حيث الالتزام بالشدة وأخذ النفس بالجد ، مطالبة القراء أن يلتزموا بما التزمت به المجلة ، وتبرز «الديباجة» أيضاً موقف المجلة من الحرية التى تنعتها بالواسعة الكاملة السمحة ، فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين .

وهذا الأخذ بالجد طبع غالب على طه حسين ، إلا فيما حكاه عن نفسه وهو يكتب كتابه عن «المتنبى» ولعله كان يميل إلى المزاح لا الجد الوعر ، وإن كان المازنى قد شدد النكير عليه فى هذه الرسالة .

وارتأى البرنامج أيضًا أن من ثمار الحرية التى تلحد إليها عدم انحيازها لشعب دون شعب وفريق من العرب دون فريق ، ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة .

وقد برت المجلة بعهدها ، فجاءت أبوابها وفقًا لخطتها التنويرية ، تذيع جواهر التراث ، وطمحت ببصرها إلى الثقافة العالمية ، بل إنها قد اتفقت مع طائفة من كبار الأدباء الأوربيين والأمريكيين - كما جاء فى صفحتها الثانية - على أن يوافوها بمقالات وقصص تكتب لها خاصة ؛ بحيث تنشر لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأية لغة أخرى ؛ فيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس إلى الوقوف على ثمرات عقول هؤلاء الكتاب . ترى كم مجلة صنعت هذا الصنيع أو تصنع هذا الآن؟

ولعبت المجلة دورًا بارزًا فى تقديم طائفة من شباب الشعراء والنقاد والمترجمين آنذاك ، غدا أكثرهم فيما بعد من شيوخ الجيل ، وإن كان بعضهم قد غير وجهته التى استهلها ، مثل عبد القادر القط وسهير القلماوى ؛ حيث عرفهما القارئ شاعرين أولا ، وغدوا ناقدين ومؤرخين للأدب ، ولم يقف دور المجلة لدى الشعر والنقد ، بل عالجت موضوعات الساعة كالقنبلة الذرية ، والشهريات الثقافية البارزة، وهى باب ثابت من أبواب المجلة، ولأن الدار التى تصدر عنها دار نشر . . فقد نشرت بعض كتب التراث ، والكتب المترجمة كالبخلاء للجاحظ ، والعقيدة والشريعة لجولد تسهير ، وطعام الآلهة لويلز والمقامر لدستويفسكى والباب الضيق لأندريه جيد ، وبعض الروايات لسعيد العريان ، وبعض فصول روايات طه حسين، واحتوت المجلة أسماء لامعة أو لمعت فيما بعد ، مثل : على أدهم وعبد الرحمن صدقى ، ومحمد عبد الله عنان وسليمان حزين وبشر فارس ولويس عوض ويحيى حقى ومحمود عزمى ، وإبراهيم نجا وعلى النجدى ناصف وحسين فوزى وسلامة موسى ، ومحمد كامل حسين ، ووداد سكاكينى ويحيى الخشاب

وشكرى عياد وآخرين كثيرين .

وقد أحسنت هيئة الكتاب المصرية صنعًا حين نشرت هذه المجلة وغيرها مجموعة فى مجلدات ، فقد بعد عهد الناس بها ، وآضت مثل المخطوطات التى يعسر الوصول إليها ، وإذا تيسر الحصول عليها فإنما تكون فى الأغلب الأعم ناقصة مبتورة أو عبثت بها الأرضة ، أو الرطوبة أو عبثت يد الباحثين غير المسئولين أدبيًا وأخلاقيًا ، حيث كانت هذه اليد تمتد بالبتر للمقالات أو المواد المطلوبة ، قبل زمن التصوير ، وربما بعده أيضًا ، وقد عانيت رهقًا شديدًا وأنا أعد بحثى عن المازنى الشاعر ، فكنت أقع على هذه الجرائم فى البلاغ والسياسة الأسبوعية والفجر الجديد وغيرها من الصحف والمجلات ، فإذا جاءت الهيئة لتنتشل البقية الباقية - وهى كثير - فإنما تسدى إلى هذا الجيل والتالى له يدًا بيضاء، حيث قارئ المجلد غير قارئ الدورية ، وهى أيضًا تقفنا على التاريخ المنسى لكثير من كتابنا ، الذين لم يسعفهم الزمن بجمع ما تناثر من تراثهم ، أو أغفلوه عمدًا فلم يجمعوه ، وأذكر هنا أن الصديق العالم الجليل الدكتور محمد أبو الأنوار قد جمع طائفة صالحة من مقالات سحب النسيان ذيوله عليها ، منسوخة بقلمه أو بأقلام النساخ قبل زمن التصوير . وهى كذلك - أى الهيئة - تدلنا قاصدة أو غير قاصدة على طريقة الكتابة آنذاك ، وعلى ذوق الكتاب وذوق الناس أيضًا الذين يوجه إليهم ما يكتب ، وعلى الرصانة الجادة التى يتناول بها الكتاب الفكرة والأداء، وكلها فيما نعتقد فى صالح ذلك الجيل ، الذى خلف من بعده خلف أضاع تراثًا كثيرًا ، وافتقد همة تمتع بها سلفه الكريم ، ويكفى أن نعلم أن طائفة من كتابنا آنذاك كانت كتبهم مقالات ذاعت فى المجلات وفى الإذاعة جمعوها ؛ حيث كان الجهد المبذول فيها كالجهد المبذول فى الكتب المبسوطة ، بيد أن الأغلبية لم تجمع هذا المنثور أو أغفلته كما قلنا آنفا ، ومن ثم يكون فضل نشر المجلدات كاملة .

لكن لغطًا أثير حول هذه المجلة ، وجهات تمويلها ، وقد رد عليه طه حسين فى أوانه ، وتتعلق القضية بتمويل آل هرارى لها وهم من اليهود المصريين ، وهى شبهة واردة ، حيث توقفت المجلة سنة ١٩٤٨ سنة الهزيمة العربية النكراء فى

فلسطين ، وجاء رد طه حسين ساخرًا جدًا حين ذكر أنه يخدم الصهيونية ؛ لأنه أحيا الأدب العربى القديم وأشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم ، وأرجع التهمة إلى المنافسة التجارية والضغينة السياسية والحسد البغيض ، وذكر أنه لم يقبل العمل إلا بعد أن استقصى وأحسن الاستقصاء ، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد ، وتحدى أن يجد الناس فيها ما يخدم الصهيونية بل سيرون فيها خصومة عنيفة لها ، ودفاعًا عن العرب فى وطنهم فلسطين .

ويمكن ألا نعير طه حسين تصديقًا لمقولته ، لأنه يدافع عن نفسه ، لولا أنا لم نجد فى المجلة أى دليل لاتهام ، وقد دافع لويس عوض عن مقاصد طه حسين ، ولكنه تشكك فى نية أصحاب الدار بشكل غير مباشر (راجع ص ٦٢ من مقدمة د. شرف) .

ينبغى - فى رأينا التفرقة بين اليهودية والصهيونية ؛ حيث كان اليهود المصريون جزءًا من نسيج المجتمع المصرى المتسامح دائمًا وفقًا لطبيعته وتاريخه ، وكانوا يحظون بقدر هائل من الشهرة فى مجالات الاقتصاد والمال ، ومحلاتهم التجارية الكبرى لا تزال شاهد عيان على ذلك ولهم بلا ريب أثرهم فى النفاذ إلى الحياة السياسية ، شأن رجال المال دائما فى كل قطر وقبيل بصرف النظر عن الديانة ، وفى مجال الثقافة كان حاييم ناحوم عضوًا بارزًا فى أكبر مؤسسة علمية فى مصر (المجمع اللغوى) ، وحين مات رثاه العقاد العدو الأكبر للصهيونية فى العالم العربى كله ، ولو كانت هناك شبهة لأحجم العقاد حتى عن مجاملة يسيرة .

وليس من الضرورى أن يكون كتاب المجلة - مع افتراض صدق التهمة - عارفين ببواطن الأمور حيث كانوا فى ذروة الوطنية والعروبة ، ولا يمكن أن تحوم حولهم أى ريبة ، وكان المصريون حتى ذلك التاريخ ١٩٤٨ لايرون حرجًا فى التعامل مع اليهود المصريين ؛ حيث كانوا أبناء وطن واحد ، وللعقاد رحلة إلى فلسطين فى ١٩٤٥ ، وكتب عنها مقالات مسهبة جمعت فى كتابه «حياة قلم» الصادر بعد وفاته ، وإن كانت له رسالة عن «رجعة أبى العلاء» صدرت ١٩٣٩ ، ذكر فيها على لسان المعرى رفضه لزيارة أرض أجلى عنها العرب ، ونود أن نصل

من ذلك إلى أن الناس - وخاصة كبار الكتاب - كانوا يستشعرون الخطر الصهيونى قبل ١٩٤٨ ، وإن كانوا لسماحتهم يعاملون يهود مصر معاملة المواطنة . . كما نود أن نخلص من ذلك أن طه حسين ، وهو فى ذؤابة المثقفين المصريين كان يستشعر مثل هذا الخطر خلافًا لما كان يراه عبد المنعم شميس من أنه كتب منبهًا أستاذه طه حسين الى خطر المجلة وارتباطها باليهود ، وأورد الأستاذ سامح كريم فى مقاله بالأهرام فى ١٩٨٨/١٢/٩ دفاعًا جيدًا وموضوعيًا عن طه حسين ، ونذكر هنا أن شميس أراد الدفاع عن أستاذه فاتهمه بالغفلة على حين كان طه واعيًا منذ الوهلة الأولى حين نشر فى مجلة الاثنين فى ١٩٤٥/١٠/٨ ، شهر صدور العدد الأول من المجلة دفاعًا عن نفسه وعن المجلة ، ومعه كل الحق ، وختم أعدادها بقوله : والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة . . فإن أعدادها بين أيدى القراء فهم لا يرون فيها إلا دفاعاً عن مصر والعروبة .

كان طه حسين يدافع عن شبهات واتهامات تركن إلى سماع دون تحقق ، وهو ما يرفضه منهج طه حسين ويرفضه كل منهج قويم ، والمحك الذى لا يخطئ فى رأينا دراسة مادة المجلة ، وكلها تدفع تلك الظنة الباغية ، ولم يكن لليهود ما لهم الآن من شرة وطغيان ، ولم يكن هناك ما يدفع شاعرًا مثل ابن البواب الذى يرى أن الفلك قد تهود فى أيامه : أيام الدولة الفاطمية «تهودوا قد تهود الفلك» ، لأن لمصر عاصمًا لا يهوى بها ذلك المهوى الوخيم ، وإن كانت الثقة المفرطة سلاحًا ذا حدين كما يقولون .

ولعل الحوم حول الشبهات هو الذى أرث هذه التهمة ، لكن طه حسين - وهو غير ظنين عندنا - لا يمكن أن نتنزعه من فطرته التى ذرأه الله عليها ، فهو لاينكص حين لايكون هناك مفر من الإقدام ، وهو رجل حديد القلب ، جرئ اللسان ، عظيم التحدى فأقدم غير هياب ولا وجل ، ما دامت له رسالة تنويرية يؤمن بها ، ويقود إليها الناس ، وإذا استقام له هذا الهدف فلا تلبث له تجاه الظنون والتهم ، بل يدوسها دوسًا وصولاً إلى غايته ، ما تخلف وما نكص .

غير أننا نتساءل ؛ لماذا لم يستكتب طه حسين العقاد فى أى عدد من أعداد مجلته ، ورسالتهما مجددة ورائدة ، وهو يدرى أن العقاد لن يقبل الكتابة لديه

دون دعوة منه حارة وصادقة ، وهما صديقان لدودان - إن صح النعت - ولهما مجاملات شهدها التاريخ الأدبى ، مع أن بعض تلاميذه كانوا يكتبون بها مثل على أدهم وعبد الرحمن صدقى ، ومحمد غلاب - كان الأخير عدوه منذ مجلة النهضة الفكرية ١٩٣١ بعد خروج العقاد من السجن ، ثم فاء إليه ودودًا ومعجبًا به.

نود أن نستخلص من ذلك بعض الرؤى المحتملة : لعل العقاد لم يشأ أن تثور حوله شبهة ، مع أنه رثى حاييم ناحوم ، أو لعل طه دعاه للكتابة واعتذر العقاد ، أو لعل دعوة لم توجه إليه أصلاً ، غير أن العقاد لو قرت لديه عقيدة بأن المجلة متهمة لنصح - على الأقل - مريديه ألا يكتبوا درءًا لهذه الشبهة . . أما وأنه لم يصنع ، فإن موقف العقاد من أصدقائه الكاتبين فى المجلة يعد دفاعًا عن طه حسين وعن مجلته .

ولعلنا حين نستعرض بعض المجلات المشبوهة فى بعض البلدان ، وموقف بعض الجهات منها، مثل: مجلة «شعر» و«حوار» ، والمجلات الصفراء المعاصرة ، ومساعى الإبراشى باشا فى عالم الأدب . . لرأينا أننا نطلب من طه حسين أن يكون من الملائكة المقربين ، فى حين أن مناوئيه فى هذا من الشياطين الأرذلين حين يتكففون موائد اليهود الأمريكيين ، أو الأمريكيين الصهيونيين ، ولا الضالين آمين!!

الطاهر مكى: الرجل والجائزة

كنا نستمع إلى شيخنا العقاد ممازحًا صنوه الدكاترة زكى مبارك ، الذى كان يدل على العقاد بألقابه : «يامولانا أنت حصلت على شهادة من الأعاجم أنك تعرف العربية» وكنا نغرب فى الضحك والمقولة غير صادقة فيما يخص زكى مبارك . إلا أنه المزاح !!

لم نكن ندرى أن المقولة صادقة إلى أن صادفنا أساتذة كثيرين يعبرون البحر ، ويحرزون اللقب ، ولكنهم ليسوا بأفضل ممن أحرزوه هنا ، بل ربما لم يساووهم، بعض هؤلاء تمهر شهاداتهم بخاتم «لايحق لحامله العمل فى الجامعات الإسبانية» مثلا .

لكن الأمر على غير ذلك مع أستاذنا الدكتور الطاهر مكى ، الذى أبى إلا أن يحرز «دكتوراه الدولة» من جامعة مدريد المركزية ، وأن يكون تقديره «امتيازًا» ، وكأين من أساتذة حصلوا على هذا اللقب ، وقعدت بهم الهمم أن يكون لهذه الدرجة صدى علمى يدل على أن صاحبها عبر البحر وأفاد ، بيد أن الطاهر مكى رأى أن تلك الدرجة بداية ، وخشى من مقولة العقاد ، فتصدى فى همة صابرة لاتبحث عن الجزاء ، بل رأى أن الجزاء الحقيقى أن يعمل ، ويسعده أن يعمل الآخرون.

تخصص الرجل فى الدراسات الأندلسية ، وحقلها عسير وغامض ، وتوقف أغلب الناس عند الأسى العاطفى الذى يغمرنا حين نتناول الأندلس ، فإذا به - مع هذا الأسى العاطفى - يعرف الطريق جيدًا ، فتصدى للدراسات الأندلسية التى عاناها المستشرقون الإسبان والفرنسيون والألمان ، وترجمها من لغتها الأصلية أو من لغات وسيطة ، وهذه أول دلالة على أنه لم يقف عند مزحة العقاد الثقيلة .

والترجمات صعبة بالنسبة للمترجم المحترف ولقارئه أيضا ، لكن ترجمة مكى نفذت إلى لباب النص ، وتلبست روح المؤلف ؛ خاصة لمن ترجم لهم فهم أدباء

مبدعون فى لغتهم قبل أن يكونوا مستشرقين ، وأشهد أننى كنت أتوقف مرارًا أمام النص الأصلى ، مقارنًا إياه بالترجمة فأرى عجبًا مذهلاً ، فلغة رجل مثل غومث، وفون شاك بترجمة باليرا صعبة جدًا، وإذا بى أجد ترجمة مكى تناصيها فى لغة عربية ، كأن العبارة الأجنبية لم تعرف غير العربية ولم تنبت إلا فيها . وبعض الأساتذة يقفون عند الترجمة ، إلا أن مكى بحواشيه القيمة يضيف إلى النص ويقوم الرأى ، ناقدًا ومعللاً ، ومضيفًا فى تواضع جم ، وإنصاف حصيف، والذين يقفون عند الترجمة بحواشيها كثيرون أيضًا ، لأنهم حين يكتبون مؤلفين لاتبدو آثار قراءاتهم فى لغة أجنبية ، إلا أن مكى - مؤلفًا ومترجمًا- استطاع أن يوازن بين هاتين الملكتين فى وفاق عجيب ، وكأنى به يؤكد أن الثقافة الإنسانية واحدة حين تمتزج فى عقل مثل عقله ، وفى وجدان مثل وجدانه ، وأؤكد الوجدان هنا ، لأن ترجماته الإبداعية شعرًا ونثرًا إنما هى أدب من النمط العالى.

وإذا كانت المنظومة العلمية عند الطاهر مكى بهذا الطراز . فإن هذه المنظومة مفرغة فى قالب إنسانى قليل النظير فى هذا الزمن ؛ لأن الطاهر مكى فارس من فرسان العصور القديمة يعيش بيننا زاهدًا فى المتاع الرخيص ، معانقاً للحياة وأشواقها العليا تطل عليه ويطل عليها عبر قصيدة جميلة محكمة ، أو دراسة أصيلة .أو عبر ود صاف منخول، ولذلك تجده دائمًا فى عزلة مأنوسة وفى أنس معتزل.

لقد كان حصوله على الجائزة تقديرًا لهذا الجهد الكبير ، وتتويجًا لرحلة علمية مضنية ، ورحلة إنسانية راقية ، وهذا التقدير قيمة تضاف إلى الجائزة حين تسعى إلى مكى ؛ لأنه لم يسع إليها ، وليس من ذوى المناصب الحكومية أو غير الحكومية حتى تسعى إليه لهذا السبب ، وهى شهادة على أن فى هذه الأمة بقايا خير ؛ لأنها تقدر نفسها حين تقدر رجلاً مثل الطاهر مكى ، الذى أثبت أن مقولة العقاد لا تصدق عليه ولا على قرنائه من العاملين المخلصين .

فى ميزان النقد
أحمد مستجير عالماً وأديباً

ملكة الشاعر قريب من ملكة العالم ، لا تدابر كل منهما الأخرى إلا لدى خفاف الشعراء وخفاف العلماء ، يجمعهما معا محاولة الكشف عن المجهول ، والتعبير عنه أو تفسيره ، ويتوسلان إليه بطاقة الخيال ، وإن تشعبت بهما المسالك فيما بعد .

وأحمد مستجير - عميد كلية الزراعة الأسبق ، وعضو مجمع اللغة العربية - نسيج وحده الآن ، التقت فيه الملكتان التقاء تكامل وامتزاج ، لا التقاء ، تنافر وتباين ، وأسعدت كل منهما صاحبتها ، حيث ينطلق لسان الشاعر حين يتخفى فى حجاب العالم ، وحين يضارع تخيل الشاعر تخيل العالم أو تفسح كل ملكة السبيل لأختها حين تضيق السبل أو تتسع ، ضيق منافذ أو اتساع تيه ، فتذكر إحداهما الأخرى وقد بدأ الرجل حياته شاعراً على عادة أبناء جيله ، يهيم عشقاً رومانسيًا ، يضبطه فيما بعد تخصصه العلمى ، ونضح هذا الهيام وذلك الضبط فيما خطته يراعته ، حين يتحدث عن ملامح من سيرة حياته ، وعشقه للطبيعة ، أو حين يفسر ظواهر الطبيعة والهندسة الوراثية ، مؤلفاً ومترجماً من الطراز الأول؛ حيث تسعفه ملكته اللغوية فينقل إلى العربية ثمرات العلوم الأجنبية ، فى استقامة بيان ونصاعة أسلوب ، وحيث لا تضيع قامته بين قامات الآخرين ، معلقاً وشارحاً ، وناقداً ، وتلك هى الفائدة المرتجاة من الترجمة ، حيث يلجها معتصما بيقينه فى علمه وفى لغته لا يتيه فى الزحام.

ولأحمد مستجير سلسلة رائقة من خمسة أجزاء ، عنوانها فى بحور العلم ، رابع هذه الأجزاء عنوانه الفرعى «قراءة فى كتابنا الوراثى» فيه مقدمة شائقة عن سيرة حياته، كتبها قلم شاعر ، وبداهة عالم ، وفيها مشاهد تسرى فيها أعراق الشعر وإن كتبت نثرًا، ويعالج المؤلف قضايا كثيرة شائكة لا تستعصى على غير المتخصصين ، ولا يتأبى عليها أهل الاختصاص ، يتحدث فيها عن الإجهاض وعلم الوراثة الحديث والاستنساخ وأصل الأنواع ، ويخشى الرجل أن تجور الهندسة الوراثية على الجانب الأخلاقى والإنسانى ، لكنه يستعلى على هذه الخشية

حين توجه المعارف الحديثة إلى سعادة الإنسان وهذا ما يحاوله المؤلف ، مقترحًا حلولاً كثيرة لمأساة الجنس البشرى ، جامعًا فى حديثه بين حماسة الشاعر ، وبداهة العالم، وخشوع المؤمن ، وزكانة المتدين.

وختم هذا الكتاب بحديث عن مشروع رياضى للعروض الخليلى ، وللمؤلف رسالة سابقة فى هذا المجال ، وحاول أن يبسط قواعد العروض وتفاعيله بمنطق الرياضة، غير أنه صعبها محاولاً الرد على الشذوذات التى تعترض مشروعه غير أن الشذوذات تبقى مطلة برأسها ، وهو لو استقام له هذا الاقتراح. . فلن يستقيم له تطبيقه على الشعر الحر ، وفيه خروجات غير محسوبة لأنها تسيبت فخرجت على النسق ، كما أن المؤلف ينسب بحرًا إلى شوقى ، تفعيلاته «مستفعلن فاعلن فاعلن» وأولى أن ينسبه إلى ابن الحناط الكفيف الأندلسى ، وقصيدته : أقصر عن لومى اللائم لما درى أننى هائم ، وقد كتبنا عن هذا البحر حين كتب منه عبده بدوى ونازك الملائكة ، وادعيا أنه من ابتداعهما ، وأخذ كلامنا بعض مدرسى العروض ، دون إشارة إلى من تحدث عنه .

وفى الكتاب حديث عن داروين ، وتحليل لكتابه ، ويختتم المؤلف هذا الحديث بترجمة مقطع من قصيدة توماس هاردى ، وقد سبق أن ترجمها العقاد ، ونحن نزعم أن ترجمة العقاد أشعر ، ولعل هذا الحكم لا يزعج الدكتور مستجير ، فربما كانت ترجمته أدق ، وكانت ترجمة العقاد وراء قصيدة لسيد قطب وحمزة شحاتة السعودى ، ولعل فى إيراد المقطعين دليلاً على ما نريد من شعرية الترجمة أو دقة الترجمة ، يقول مستجير:

«إذا ما بزغت الشمس فمضيت أرقب الغدير ، والحقل والقطعان والشجرة المهجورة بدت لى جميعًا وكأنها تحدق فى كمثل أطفال بمدرسة عوقبوا فجلسوا صامتين» ، ويقول العقاد : «إذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصبحة جدولا وحقلا وقطيعا وشجرا موحشا ، رأيت كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إلىَّ» وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السآمة والضجر والإعياء» .

تحية لأحمد مستجير الذى أدب العلم وشعره ، وجعل من الشعر علم الدرس والنفس والضمير .

حول حقيقة التنوير

الساحة مكتظة الآن بالآراء المتصارعة حول حقيقة التنوير ، ولكل وجهة هو موليها ، حيث ثقافته ، ومطارح فكره ، ومنازع ميوله ، إلى درجة أن كثيراً من المصطلحات المستخدمة لدى كل فريق مدخولة ، ودرج الناس على قبولها مسلمين بها ، ولو أنهم أمعنوا النظر قليلاً وتركوا الإلْفَ ، والكسل المطمئن لرأوها لا تثبت للتمحيص، من ذلك مثلاً خرافة «الأصالة والمعاصرة» التى شاعت ورأى فيها الناس خاتم سليمان الذى يفض الاشتباك ، ونحن نعتقد أن كلمة «الأصالة» وحدها تغنى عن الكلمة المعطوفة عليها ، لأن كل أصيل معاصر بالضرورة ، حتى لو كان من آلاف السنين فالأصالة "ORIGINALIDAD" تعنى الابتكار والابتداع، وتنفى المسخ والتقليد، فلا يكون المرء نسخة من غيره ، وإذا عبر فى هذه الحالة . . فإنما يعبر عن ذات الإنسان خاليًا من التشويه والتقليد ، وبالضرورة - والحال هذه- يكون معاصراً ، وكأين من معاصرين لنا ليسوا بهذه الأصالة ، فكأنهم غير معاصرين ، لا نعرفهم إلا أجراماً تتحرك ، وليس لهم علقة بالإنسان المنتسبين إليه .

ومع أن هذه المسألة شديدة الإبانة . . إلا أن الناس درجوا على «العطف» وهو- بداهة - يقتضى المغايرة مع المعطوف عليه !! .

هذا مثل مما يملأ الساحة ، ونحن موقنون أننا - وهو سبب أزمة كبيرة - لا نتحدث لغة مشتركة ولا شبيهة بها ، وأن المصطلح المجعول به للتقييد لا نكاد نعرفه .

ومما يخفى على كثير من الناس أيضًا مسألة التنوير ، مع كثرة اللاغطين بها ، ويبدو أننا لانزال ندور فى حقل التخمين والحيرة ، التى تلابس الأمم فى لحظات الانعطاف التاريخى ، ولواعج التردد والحيرة ، ونكاد نقول : الإحباط ، وهو حقيق بإطفاء جذوة التنوير التى نبحث عنها .

درج المؤرخون على جعل الحملة الفرنسية على مصر بداية النهضة والتنوير ، مرتئين أن نابليون اصطحب معه علماء قيدوا معارفهم فى «وصف مصر» وأدخل المطبعة ، ثم توالت الأحداث مع محمد على وخلفائه، فكانت البعثات إلى أوروبا، وجلب الأساتذة الأجانب للتدريس فى مصر .

هذا الرأى يحظى بقبول شديد لدى كثير من المؤرخين العرب ، وهو رأى له وجاهته؛ خاصة وأن الناس تذكر جهود رفاعة الطهطاوى فى الترجمة والتأليف وإنشاء المدارس والصحف ، وخلفاء رفاعة ممن تعلموا فى أوربا ، أو الآخذين بثقافتها وهم فى بلادهم ، ولهؤلاء صوت مسموع حتى الآن فى المدارس والجامعات ، والمنابر الإعلامية والثقافية ، وهم - فى أغلبهم - يستحقون الإشادة والتنوية إذا خلصت نياتهم ، ولم يكونوا أبواقًا للاستشراق والأعاجم وذيولاً لهم.

بيد أنه من الحتم أن نأخذ فى الاعتبار - إذا قبلنا هذا الرأى - أن الحملة الفرنسية اقتصر دورها على تنبيه أمة لديها استعداد هائل للتنبيه ، وفيها رجال أيقاظ ، فيهم غيرة وأنفة ؛ خاصة إذا علمنا أن ثورات قامت تناهض الحملة وتقتل قائداً منها ، وظلت فحسب ثلاث سنوات وهى ليست زمناً فى عمر الأمم ، فضلاً عن ذلك أن الأمة كانت قد بدأت تستعد للنهضة قبل قدوم الحملة .

وهذا بيانه وجهة النظر الأخرى ، التى رأت فى الحملة شراً محضًا ، غزا دار الإسلام ليقتل فيها نهضة وليدة ، فالأعاجم كانوا يترددون على ديار الإسلام - وخاصة مصر - يتدسسون بين علمائها ليقفوا على ما عندهم ، ويكتبوا «تقارير» إلى قارتهم بما عليه حال تلك الديار ، يقول العلامة محمود شاكر «أبو فهر»! «هب من جوف الغفوة أشتات من رجال أيقظتهم هدة هذا التقوض ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غفوتها ، رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم بلا تواطؤ بينهم ، كانوا رجالاً أيقاظا مفرقين فى جنبات أرض مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه فى قرارة أنفسهم مبهماً من خطر محدق أحسوا الخطر ، فرموا إصلاح الخلل الواقع فى حياة دار الإسلام : خلل «اللغة» وخلل «العقيدة» وخلل علوم «الدين» و«خلل علوم الحضارة» . . وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم ، وبهمة وجد أرادوا أن

يدخلوا الأمة فى «عصر النهضة» نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام ، من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم لك هنا مجرد ذكر باختصار :

(١) البغدادى : صاحب خزانة الأدب ١٦٢٠ - ١٦٨٣ فى مصر .

(٢) الجبرتى الكبير : ١٦٩٨ - ١٧٧٤ فى مصر .

(٣) ابن عبد الوهاب : ١٧٠٣ - ١٧٩٢ فى جزيرة العرب .

(٤) المرتضى الزبيدى : صاحب تاج العروس ١٧٣٢ - ١٧٩٠ فى الهند ومصر .

(٥) الشوكانى : ١٧٦٠ - ١٨٣٤ فى اليمن .

وهؤلاء - على تفاوت - هم كانوا رسل النهضة العربية والإسلامية ، كل فى مجاله فى علوم اللغة والفقه والعقيدة وعلوم الحضارة ؛ خاصة الجبرتى الكبير والد المؤرخ عبد الرحمن الذى يقول عن أبيه : «وحضر إليه طلاب من الإفرنج، وقرأوا عليه الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك» .

ويرى أبو فهر - ومعه كثير من الحق - أن هؤلاء الطلاب كانوا هم المستشرقين الذين تجسسوا لحساب قادتهم على ديار الإسلام ، وحين رأوا هذه النهضة التى لابد أن تؤتى أكلها بعد حين أرادوا وأدها وإطفاءها . فكانت الحملة الفرنسية ، وما جرته من خراب وقتل لتلاميذ هؤلاء المشايخ الكبار ، وسرقة ما تحتويه خزائن القصور والمساجد والأضرحة من كتب نفيسة ، لا نزال نحن نطلبها من مظانها الأوربية ، ونهب هذه الكتب محاولة خبيثة لإيقاف الدم المتدفق فى عروق النهضة الوليدة ، إلا أن تكون «نهضة» على غرار نهضتهم هم ، وهنا لا خطر عليهم من الإسلام والعرب .

ورؤية أبى فهر مناقضة لكثير من المسلمات ، التى يدين بها الباحثون فى جملتهم والمعتدلون منهم يحاولون جعل الحملة الفرنسية مثيراً فقط ومنبهًا ، أما الغلاة - وهم الجمهرة - فلا يرون إلا الخير كله فى الحملة ، والاتصال بها والأخذ عنهم .

ونعتقد أن الحملة كانت «كالمصل» من جهة ، وخرابًا من جهة أخرى ، وأننا نميل إلى ترجيح كفة الأستاذ شاكر فى مشتجر هذه الآراء ، دون أن يعنى ذلك رفض ما عند الأوربيين . . بل لابد من فتح منافذ الثقافة دون تمييز ، والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، ولكن مع نخل وتمييز ، ودقة نظر ، وحصافة ورؤية ، فما هو عند الأوربيين ليس شرًا محضا ، بل فيه خير كثير لمن يرى .

وربما كان هذا «الاعتدال» هو منهج الأستاذ الإمام محمد عبده ، الذى حارب الجمود والغلو فية ، وأيد التجديد والاجتهاد فى الدين ، وعدم الوقوف على ما قاله السلف لمجرد أنه قديم ، والحق أن فكر الأستاذ الإمام فكر إسلامى صحيح ، لايلغى العقل ، ولا يشله بقيود السلف إلا إذا كانت صحيحة يتدفق منها الدم النقى ، وبذلك تختلط بالدماء المجددة .

ولعل فكر الأستاذ العقاد - وهو تلميذ للأستاذ الإمام - من أصوب الأفكار التى ينبغى أن تكون هاديًا للأمة ، وأن أفكاره فى العقيدة والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واللغة ، والشعر ، والنقد - خاصة بعد انتهاء فورة الشباب وحماسته - هى قوام بين السلفية والتجديد ، وقد أعاد إلى هذه الأمة الثقة بتاريخها وأدبها ودينها ، مرتئياً أن دور المسلمين فى طور الصمود فى لحظات الانكسار ، لا يقل عن دورهم فى لحظات التحدى والجسارة والفتوحات العظيمة ، وهذا هو الذى وقى هذه الأمة من التلاشى والانحسار الشديد .

ثمة آخرون يسيرون فى هذا الدرب القاصد من جيل الإمام مثل البارودى ، ومن بعده رجال حملوا راية التنوير الحقيقى فى مجالات الشعروالنقد والتاريخ ، ومقارنة الأديان ، والسياسة والفقه ، وعلوم الحضارة وغير ذلك .

لكن فى كثير من الحالات ، والأمة تمر بأطوار مختلفة بين شد وجذب ، تبزغ دعوات كالفرعونية فى مصر ، وكتابة العربية بحروف لاتينية ، وإنكار الشعر

الجاهلى ، والتطاول على أعلام الإسلام ، ودعوات أخرى حديثة كالتطرف الدينى المغالى فيه كـرد فعل لتطرف آخر ، وقصيدة النثر وغـير ذلك من الدعاوى المنكرة التى يرفضها الاعتـدال ، والنظر الصحيح ، وأن صلاح الأمة لايكون إلا بما صلح به أولها اسـتقـامة فى غيـر عنف ، ولين فى غيـر ضعف ، إذا نقلنا العـبارة من السياسة إلى سياسة الأدب والفكر عموماً .

ونعتـقد أن مثل هذه الدعـوات تصدر أحيـانًا بباعث خـبيث ، وأحيـانًا بغفلة وكلاهما سـواء ، كما نعتقد أن مـواجهة التطرف الناشب فيم مصـر الآن مثلاً لا يكون بفكر مرفوض من «الاعتدال» كـأن «نواجه» هؤلاء بنشر سلسلة كتب التنوير كما يطلقون عليها ، وكثير منها غَثٌّ تجاوزه الزمن ، ويعبر بعضه عن نزعة متطرفة تميل إلى الغرب مثلا ميلاً شديدًا ، بل إن مواجهـته - وللمواجهة أساليب كثيرة - تكون بالفكر المعتدل ، الذى يقف على قـمته الأستاذ الإمام محمـد عبده والأستاذ العقاد ، والشيخ الغزالى ، والشيخ أبو زهرة ، وطه حسين فى إسلامياته ، ونقده الأدبى الخالى من الجمـوح ، والمازنى ، والزيات وإخوان هذا الطراز ، وأن نحيى فى الأمة ميولاً لا قـوام لها بغيره ، وهى الإفادة البصـيرة من التراث ، والوقوف على منافذ الفكر الأوربى بحصافة شديدة ، وعيون مفتوحة ، ونعتقد أن هذه الأمة فى أمس الحاجة إلى العناية بلغتها - وهى عرضـها - وإنها إذا عرفت لغتها وأدبها فطنت إلى جوهرها وإلى دينهـا وكتابها ، الكريم الذى هو قمـة الإعجاز فى هذه اللغة .

نعتـقد أن هذا هو التنوير الذى نسـعى إليه ، ونعـمل له ، وما عدا ذلك فـهو ضـلال فى الرؤية ، وزيغ فى الفكر وعـماية مـهلكة ، وعلينا أن نرى مـا يراد بنا ويخطط لنا بيدنا وبيد عمرو .

الجوائز الأدبية
التقدير هم الكاتب الأصيل

لعل أفضل جائزة يتلقاها الكاتب أن يكون مقروءًا ، وأن يؤثر فى أمته بوصول رسالته إليها ، وحسبه أن تصل إليها الجائزة من الدولة نائبة عن الأمة التى قدرته ، مقرونة هذه الجائزة بأوانها من التشجيع أو التقدير ، لا بعد فوات الأوان ، ويكون قد أحرزها من ليسوا نظراء الكاتب المجاز ؛ إذ تنعدم النصفة ، ويستوى من لايستحق بمن يستحق .

وشر ماقنصته راحتى قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

وأحيانًا تصل الجائزة بعد إبانها ، فتكون كطوق النجاة ، يرمى بعد بلوغ البر كما قال برنارد شو .

والجوائز خير لمن تصل إليه وللجهة المانحة أيضًا ؛ لأنها تدفع الكاتب فى طور التشجيع إلى الإتقان والحماسة وتدفعه فى طور التقدير إلى شىء - ولا نقول كل- من الرضا عن رحلته الطويلة ؛ خاصة فى النتاج الأدبى الذى يحتاج إلى مكث كثير لحصاد التقدير ، وليس كما هو الحال فى الفنون الأخرى سمعية وبصرية؛ إذ يصادف ذووها غالباً تقديراً وإعجابًا من المشاهدين أو السامعين ، كما أنها خير للجهة المانحة ، حيث هى دلالة على حسن الرأى ، وأن التقدير للآخرين النابهين من الأمة ، إنما هو فى جوهره تقدير لتلك الجهة ؛ إذ هى مشاركة فى بعض الفضل الذى تسديه ، والذى تضعه فى موضعه الصحيح .

وقد قيل كلام كثير من الجوائز محلية وعالمية ، وربما كان من أهم ما يقال إنها كثيراً ما تجتاز المستحقين إلى غيرهم ، أو على الأقل تهمل بعض المستحقين لحساب البعض الآخر ، وآية ذلك فى جائزة نوبل مثلا أنها تخطت أسماء كبيرة ، لأصحابها مكانة باذخة فى الأداب العالمية ، مثل توماس هاردى وأونامونو

ونظرائهما ، بيد أنها فى هذا التخطى تثبت أمرًا جليلاً ، هو أن الجوائز - مهما عظمت - لا تضيف إلى الكاتب مكانة لم يبلغها قبل الجائزة ، وخاصة جائزة القراء التى تبقى بعد فوات هالة الحفلات ، والبريق الإعلامى ، وأنها لا تخلق أديباً إلا إذا كان مؤهلاً بحكم ملكاته لبلوغ هذا الأوج، ربما تحجب عنه بعض الخمول - إعلاميًا - لكنه حجب موقوت ، بدليل أن كثيرين ممن أحرزوا نوبل - مثلاً - لا يضارعون فى الشهرة والذيوع بعض الأسماء التى لم تحرزها، وليسوا مثلهم أيضاً فى المكانة الأدبية . . كل هذا له دلالة ، ودلالته القريبة أن مثل هذه الجوائز ليست المحك الوحيد لقيمة الأديب أو المفكر ، وأن القيمة المستمدة منها ربما تنصل ألوانها بعد حين ، ودلالته أيضًا أن اللجان المانحة لا يصادفها التوفيق أو النصفة فى بعض الحالات ، وخير ما تصنعه أنها تقدم غالباً الحسن ولاتضمن لك الأحسن ، وأنها لجان فى النهاية بشرية يعتريها ما يعترى البشر من نوازع وأميال ، وقد عرفنا أدباء أحرزوا نوبل بموازين غير موازين الاستحقاق المطلق ، وأنهم «متوسطون» ، وأن كثيرين من أدبائنا يفوقونهم ، ونجيب محفوظ - فى رأينا روائيًا- أفضل من كثيرين استحقوها ، لكنها التقسيمات الإقليمية ، التى تدفع إقليمًا إلى دائرة الضوء ، وتحجب أقاليم أخرى !!

وثمة جوائز أخرى ربما تضارع نوبل ، وهى جوائز سخية بكل المقاييس أدبيًا وماديًا، وبعضها - فى إسبانيا مثلا - يخول لحائزها أن يتفرغ تمامًا للأدب ، وأن تدركه حرفة الأدب بالمعنى الأوربى لهذه الكلمة ؛ إذ هى عندنا قرين الخصاصة والبؤس ، حسبنا أن رجلاً مثل أنطونيو جالا - وقد بلغ الستين هذا العام - يعيش من الجوائز ومن دخل كتبه عيشة أهل الفن المرئى ، ويعيش فى قصر اشتراه من المغنى العالمى : خوليو إجلسياس ، وتطبع كتبه مسرحاً ورواية ومقالات وشعراً بالمليون ولا نقول بالآلاف .

دلالة مثل هذه الظاهرة أن التقدير الأدبى مشفوع بالتقدير المادى ، وأن الأدب وظيفة اجتماعية ينبغى أن تذلل لذويها المستحقين ، أرقى المنازل الاجتماعية فى الأمة ، ودلالتها أيضًا أن القراء - قبل الجائزة ، وهم كثير فى الأمم الراقية - يخولون لكتابهم مثل هذه المكانة الباذخة .

وما قلناه عن الجوائز عمومًا يصلح قوله عن الجوائز فى مصر ، التى فطنت مبكراً - فى محيطها الإقليمى - إلى تقدير أدبائها ومفكريها ، فاستنت نظام الجوائز قبل الثورة وبعدها ، تمثل هذا «البعد» فى جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية ، منذ سنة ١٩٥٨ حتى الآن . . ولحسن الحظ أنه كانت لاتزال تعيش بيننا قمم شامخة من الأدباء والمفكرين - أدباء النهضة ومفكريها الكبار : طه حسين ، لطفى السيد ، العقاد ، الحكيم وإخوان هذا الطراز ، ومثل هؤلاء منحوا الجائزة كثيرا من قدرها ، ولسنا بذلك نغمط الآخرين حقوقهم ، وإننا من أنصار الماضى ولا نرى الحاضر أو المستقبل ، بل نعنى أن أمثال هؤلاء ليسوا محل حجاج، بل تكاد الآراء - مهما اشتطت - أن تتفق عليهم وعلى نظرائهم من أبناء الجيل الثانى ، حتى فى الجائزة التشجيعية - آنذاك - التى كانت تزهو بمستحقيها ، ولأنها كانت لاتزال قيمة أدبية ومادية .

لكن ثمة بعض الملاحظات التى لاتبطل قيمة الجوائز ولا تدفعنا إلى إلغائها ؛ لأنه شر بكل المقاييس ، بل تحفزنا إلى مزيد من الضبط والإتقان .

أولى هذه الملاحظات أن القيمة المادية غدت مضحكة ، ولاتظن أن التقدير الأدبى وحده حسب الأديب ، فليس الأديب جماداً ، بل هو رجل مشتعل الخوالج ، يتبوأ مكانة المرء الراقى فى الأسرة الاجتماعية ، وبعض الجوائز التى يمنحها المجلس الأعلى للثقافة الآن أربعة أضعاف الجائزة التشجيعية ، ولا تجد أحياناً من يتقدم إليها ، زهادة فى القيمة المادية فى زمن سطا فيه التضخم ، وهبطت القيمة السعرية للعملة ، وليس هذا وحده ، بل إن الجائزة التشجيعية - وهذه هى الملاحظة الثانية - يتقدم لها من تجاوزوا طور التشجيع ، بعضهم خنق الستين بالفعل ، فأى تشجيع تنتظره اللجنة المانحة منه ، أو ينتظر هو من الجائزة الهزيلة هذه .

وثالثة هذه الملاحظات أن أعضاء المجلس المانحين للجائزة ليسوا جميعا من أهل الاختصاص ، فيما يتصل بالتقديرية ، فثمة موظفون وأعضاء من الخارج ، ولذلك يكتفى المرشحون عادة بترشيح مجالس الجامعة أو الهيئات التى رشحتهم ، ومعهم بعض الحق فى هذا .

رابعة الملاحظات أن الجوائز الأدبية التقديرية يخالطها شىء من عدم التقدير

الحقيقى ؛ نظراً لاتساع حقل العلوم الاجتماعية مثلا كاللغة والفقه، والفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك ، وكله جائزة واحدة أو تتعدد أشخاصًا لا مجالات ، ومثل هذا ظالم لذوى هذا الاختصاص .

الخامسة أن جوائز الدراسة الأدبية غلبت بعض الشىء على الإبداع - فى التقديرية - ربما شحب الإبداع بعض الشىء ، غير أن ثمة مبدعين ، يجب ، أن يؤخذوا فى الاعتبار أو على الأقل يقرن الإبداع بالدرس ، وفى هذا الصدد يقال أيضاً إن بعض المبدعين ؛ خاصة فى الشعر قد أحرزوا الجائزة التقديرية وليسوا بمستحقيها بحال ، بل ليسوا يستحقون التشجيعية ، لكنه سوء التقدير .

سادسة الملاحظات أن هيئات ترى أن تمثل اللجان فى إحراز الجوائز ، وهذا مطلب أشكل بالسياسة لا بالأدب ، وهو أمر يجعل الجائزة تتجه إلى الهيئة لا إلى المستحق ، وثمة أسماء كبيرة - إعلاميًا أو وظيفيًا - وصلت إليها التقديرية ، والأمة واجمة إزاء هذا التقدير الذى أفرغ الجائزة من حقيقتها ، ولا نريد تسمية هذه الهيئة أو غيرها فهى معروفة بسيماها للمتتبع .

وداخل هذا الإطار تمنح الجائزة أحياناً لبعض رجال الدولة ، وثمة شبهة واضحة فى هذا التقدير ، بغض النظر عن أنهم يستحقونها أم لا ، ومن العجب أن تختلط الجوائز اختلاطاً فاحشاً ، حين يحرز أحدهم وهو وزير سابق - عليه رحمة الله - جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وهو فقيه أولى به جائزة العلوم الاجتماعية ، إذا خولته معارفه فى هذا الصدد .

الملاحظة السابعة أن بعض الجوائز التشجيعية كالشعر ربما تخرج عن إطارها حين تتجه مثلاً - وهو أمر نراه قريبًا جدًا - إلى أصحاب قصيدة النثر ، وهو اتجاه سنراه فى السنوات القادمة ، حيث تنشر كتابات هؤلاء على أنها دواوين ممهورة بكلمة : شعر فلان ، متمسحين بانعدام الأجناس الأدبية ، وأن كل كلام هو إنتاج أدبى ، وبقياسهم يغدو الكلام وهو إنتاج والتبول - عفوًا - وهو إنتاج كذلك شيئًا واحدًا، كما ننتظر أيضًا أن تمنح هذه الجائزة للزجل ، ونحن نقترح للزجل جائزة خاصة باسمه بعيدة عن الشعر الفصيح ، لا تقليلاً من قيمة الزجل ، بل وضعًا للأشياء فى نصابها الصحيح ، وربما كان ما نقوله رجمًا بالغيب - وليته كذلك - وإن كان هذا «الليت» بعيدًا !!

تخطت هذه الجوائز بعض المستحقين وستظل كذلك ، ركوناً إلى الطبيعة الإنسانية ، وبعض هؤلاء خامرهم كثير من الأسى ، وهو عسير بالنسبة للأدباء والمفكرين - لكن عزاءهم - وهو عزيز غير مرتخص - أن شملهم القراء بمزيد من الاهتمام ، وأن كتبهم لاتزال طلبة القارئ المتلبث ، وأن التقدير شيء ، والشهرة شيء آخر ، وأن التقدير يجب أن يكون هم الكاتب الأصيل ، وربما تحاول اللجان أن تعوض ما فاتها بعد الأوان ، فتمنح الجائزة لأسماء الراحلين ، وهو تقليد حسن لا بأس به. أسوة بما حدث فى مصر . . حاولت بعض الدول العربية أن تقدم جوائزها على مستوى قومى عربى ، فقامت جائزة الملك فيصل العالمية ، وجائزة العويس ، والبابطين ، ومحمد حسن فقى ، وهى تنحو فى مجملها نحو الجوائز المصرية ، وإن كانت قيمتها المادية جيدة ، وكان لأدباء مصر ومفكريها سهم راجح فى إحراز هذه الجوائز ، وهى - كما هو واضح - جوائز أهلية يقوم بها أهل اليسار ، والمقدرين للفكر نيابة عن الأمة العربية كلها ، ولا نقول نيابة عن الدول ؛ لأن بعض هذه الدول لها جوائزها المرصودة كذلك كجائزة التقدم العلمى، بالكويت ، وجائزة صدام وغيرهما من الجوائز .

وفضيلة هذه الجوائز أنها تمنح بعض الأمل ، فى تقدير الفكر والأدب ، وأنها تسد بعض النقص فى الجوائز الإقليمية أو الدولية ، وهو أمر يحمد بكل حال .

ربما نقترح - إذا جاز الاقتراح - أن تنهض مصر بدورها المنوط بها فى المنطقة ، فترفع قيمة جوائزها المادية أسوةً بما حدث فى السينما والمسرح ، وأن ترى أن الأدب أبو الفنون ، وأن الفكر أساس كل شيء حتى فى السينما ، التى يحصد ذووها التقدير من جمهرة المشاهدين ، وهو نوع من القصد الطبيعى ؛ لأن الأدب والفكر فى حاجة فى مكث، وليس بكثير أن نقدم لأديب ومفكر أفنيا حياتهما فى خدمة الأمة مائة ألف جنيه وأكثر جائزة تقديرية ، تزيد مع التضخم تباعًا ، وأن تصل الجائزة التشجيعية إلى عشرة آلاف على الأقل ، وتقوم جائزة وسطى تصل خمسين ألف ، يطلق عليها ما شئنا من الأسماء ، نأيًا عن مهزلة التشجيع بعد الستين ، وأن تظل الجائزة التقديرية أرفع الجوائز ، لا جائزة النيل أو غيرها من الجوائز ؛ لئلا نسيء إلى الماضى الجليل فى رموزه : طه حسين والعقاد والحكيم وإخوان هذا الطراز .

المصطلحات الأدبية الحديثة

هذا كتاب مفهوم !

والكتب النقدية المفهومة غدت ندرة نادرة لعجمة فى الفكر والأداء نظنها فى أصحابها ، الذين يخاطبوننا بلغتنا ، فلا نفهمهم ، ولا نخالهم فاهمين ما يكتبون!!

مؤلف هذا الكتاب د. محمد عنانى امتلك فكرته - بلاريب - فامتلك التعبير عنها بأيسر طريق ، وهو رجل غنى عن التعريف ، فاسمه يتردد بين الأوساط الأدبية والنقدية مبدعًا ومترجمًا ، ودارسًا ، منذ حين ، وكتاباته لها رصيد هائل من مسئولية الكلمة عنده ، وأمانته فى أدائها ، ومن الأمانة والمسئولية حسن «البيان» كما أن لها رصيدًا هائلاً أيضًا لدى المتلقين قراءً ونقادًا ، والرجل أقابله منذ أمد ، من خلال ما يكتب ، فيربو رصيد الاهتمام والإعجاب عندى ، وأقابله شخصيًا - على ندرة نادرة - فألمح من طبعه الدمث ، ورهافة حسه ، وحلو منطقه ، وغيرته على لسانه ما يضاعف هذا الرصيد .

والدكتور محمد عنانى بدع بين أساتذة اللغات الأجنبية عندنا ؛ لأنه أديب فى لغته أولا ، وعاشق لها ، ونعتقد أن إتقانه وعشقه للغته الأم وراء إتقانه اللغة الأجنبية ، وهذا معهود بين أساتذة اللغات فى كل الدنيا .

محمد عنانى فى كتابه المصطلحات الأدبية الحديثة كاتب مفهوم ، ودقيق وواقف على تراث أمته ، يستأنس به فى مشكلات المصطلح ، فيعينه هذا التراث ، فى تأصيله وحداثته ، والمؤلف يحاول فى خلال كتابه كله أن يتحدث لغة مشتركة ما أمكن ؛ لأن وحدة المصطلح ضرورية فى برج بابل ، الذى تتشاجر فيه المصطلحات تبعًا لثقافة الناقد أو المترجم وفى المؤلف شجاعة محمودة حين يعرض لبعض المصطلحات الذائعة كالإشكالية والتناص ، والخطاب ، والمقاربة وغيرها ليراها غير دقيقة ، ولم يشأ أن تجرفه الموجة وهو أستاذ الأدب الإنجليزى، بل

اعتصم ببيانه وبيان لغته ، ولم يخش الاتهام بالتخلف ، وفصول الكتاب خلاصة وافية للمصطلحات الأدبية الحديثة ، ودراسة دقيقة لها ، وإن كانت موجزة لكنها محكمة ، وتحظى بحواش شديدة الأهمية ، فيها النفحة الشخصية للمؤلف، وفيها الرأى الصائب حين تشتجر الآراء والمذاهب .

وفى الكتاب مجال لاختلاف الآراء وربما يكون الإشارة إليها من باب التقدير للكتاب وصاحبه فالشعر المرسل - فى رأينا - ليس الشعر الحر ، بمفهومه الحديث؛ لأن المرسل كل بيت بقافية ، ولم يكن مخترعه على أحمد باكثير فى ترجمته كما ذكر المؤلف ، بل إنه مسبوق بشكرى والمازنى وساهم معهما العقاد وإن كان لم ينشر منه شيئًا ، بل نفر منه فيما بعد ، ومسألة الوحدة العضوية مسبوق بها محمود أمين العالم من العقاد ، وابن طباطبا قديمًا ، وإن كانت دقة المؤلف - وهو شاعر - جعلته لا يؤمن بهذه العضوية فى الشعر الغنائى ، ونحن نشاركه عدم الإيمان بها - عضويًا - ونؤمن معه بنوع من الوحدة ربما تكون صفتها «الاحتمالية» لا الهندسية ولا العضوية ، أو هى «وحدة» شرحها شيخنا أبو فهر محمود شاكر فى كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» علينحو جيد ، ومع هذا الاختلاف . . فهناك «اصطلاح» بينى وبين المؤلف وواشجة نسب حميمة من حب العربية و«بيانها» والغيرة عليها ، حقيق أن يمد جسور التواصل والتقدير ، وعنانى بكل هذا محمود وأثير .

مشكلة الأدباء الكبار

معظم الأدباء الكبار فى بلادنا مشكلة ضخمة ! وأكاد أقول الكبار فى أى مجال بصرف النظر عن التخصص ، فهم لا يسمحون لمن دونهم إلا بالتسبيح بآلائهم ، والتغنى بأمجادهم ، والذوبان فى أشخاصهم ، حتى ولو كان هذا الإطراء كذبًا ورياء ، بل يبلغ بهم الأمر أحيانًا إلى أنهم يصدقون هذا النفاق ناسين أو متناسين بواعثه وطبيعته ، لأنهم سوغوا لأنفسهم هذا .

ولعل الكبار معذورون فى تلك الخليقة ؛ فوهج الحياة يبرد فى أوصالهم ، فيستعيدون بالثناء المفرط والمجاملات الجوفاء شيئًا من حرارة ، والمؤسف أن الأجيال التالية لهم قلدوهم فى تلك الصفة المنكرة ، فلا ترضى إلا بالمدح المستفيض ، وغدت المسألة منظمة ومحسوبة ، وبقدر ماتبذل من لسانك - رياءً ومجاملةً - تجد الجزاء ، والجزاء كذلك محسوب بدقة : التمكين من نشر كلامك فى وسائل الإعلام ، وغاب لهذا النقد المنصف ، وبات الكلام وسطًا متشابهًا لا لون له ولا حياة !!

وكان المنطقى أن يكون سلوك الكبار على غير ما هو عليه الآن ؛ لأنهم - أو لأن كثيرين منهم - أدركوا طرفًا من حياة جيل الأساتذة الرواد ، وقد كانوا أساتذة ورواداً بحق فى أدبهم وسلوكهم ، جهروا بآرائهم حتى فى أصدقائهم ومكنوا - حتى لمخالفيهم فى الرأى النقدى والاتجاه السياسى - أن يذيعوا ما يرونه ، وغدا هذا الاختلاف هو الأساس الأول الذين ينطلقون منه ، قبل أن يكون الاتفاق هو المنطلق ، والمحصلة لكل هذا هو الازدهار الذى شهدته الحياة المصرية فى كل مرافق حياتها أدبًا ، وفكرًا ، ورجالاً .

لقد أتيح لى - وأنا أعد رسالتى للماجستير عن شعر المازنى - أن أعود إلى الدوريات القديمة ، وقد شهدت عجبًا ملأ نفسى إعجابًا بذلك الجيل الذى لن يتكرر ، وحزنًا على جيلنا وجيل كثير من أساتذتنا ، كان العقاد ينشر مقالات

نارية ضد خصومه من السياسيين والأدباء ، ويرد هؤلاء الساسة والأدباء بمقالات حامية الأوار ، تناولت شخص العقاد وعرضه وأدبه ، ولم يجزع العقاد ولم يمرض - كما يحدث الآن لبعض الأساتذة الكبار ولا داعى لذكر أسمائهم كيلا يمرضوا مرة أخرى - بل ظل ينافح عن مكانته ورأيه ، واستمر طول حياته غرضًا للسهام التى تنتاشه ولكنها تزيده قوة ، ونموذج آخر هو هيكل باشا ، الذى كان ينشر النقد ضده فى صحيفته «السياسة الأسبوعية - وكان يرأس تحريرها !!

أين هذا مما نحن فيه الآن !! ؟ لقد غلب الرأى الواحد الرأى المؤيد المقرظ دائمًا وفى إفراط ، وأصبح العرف السائد أن الكبار ذاتهم مصونة وكذلك من تلاهم بالتبعية ، وانتقلت هذه الآفة - للأسف الشديدة - إلى بعض أساتذة الجامعة الكبار ؛ إذ يربون تلاميذهم فى الدراسات العليا على تلك الخصلة النكراء ، فلا مخالفة فى الرأى بل التسليم المطلق والإعجاب الجم ، والثناء الهائل على الأستاذ، وإن كان الأستاذ يقول لطلابه لابأس من المخالفة ، فإنه يقول بلسانه ، والويل للطالب الذى لا يعرف مقتضى الحال، ويدرك أن مثل هذا الكلام يقال فقط للاستهلاك المحلى - كما يقولون - والحاصل هو تخريج نكرات ، وهذا - كما يخيل لى - هو المطلوب فى حقل الأدب والجامعة .

وينبغى ألا يجزع الأساتذة الكبار ؛ فهم محل إكبارنا ما سمحوا لنابأن نقول رأينا فيهم ، وأن يشجعونا على ذلك ، وليعملوا - وليس فى هذا نصيحة لهم بقدر ما هو رجاء إليهم - أنهم حصون باذخة ، تزيدها السهام المصوبة نحوها قوة ومتانة ، وأننا امتداد لهم إلا فى جزعهم من النقد ، ومرضهم منه ، وأن الحوار الحر الذى ساد الحياة منذ قرن يجب أن يعود ، وليعلم الجيل التالى لهم أن ما يبقى منهم إنما يبقى بالنقد ، وأن عليهم أن يعرضوا عن المدح الزائف ، وأن يأخذوا أسوتهم من جيل الرواد لا جيل الكبار الآن .

الكلمة الأخيرة
للتاريخ والنقد الصحيح

القطيعة مع التراث إلا فى أضيق الحدود ، لا وجود للبارودى أو شوقى أو العقاد أو جماعة أبوللو أو حركة الشعر الحر فى مصر والعراق !! فى مقابلها : أنا الشعر ، أنا الإضافة ، أنا الإبداع ، أنا جماعة شعر ، أنا أدونيس ، ولا شىء غيرى !! تلك هى جملة من الدعاوى التى يطلقها على أحمد سعيد أو «أدونيس»، وهى دعاوى غريبة ، وأغرب منها من يلتفت إليها ويصدقها ، لكننا فى زمن زاخر بالعجائب «حتى ليس فيه عجائب» على رأى أبى تمام ، وقد ظل الرجل حوالى نصف قرن يردد هذه المقولات التى سمعنا شبيها لها من غلاة المستشرقين ، الذين لا يرون سوى قيمة تاريخية لا فنية حتى فى الشعر الجاهلى ، ومثل هؤلاء لا خطر لحكمهم فى أدب ولا نقد ، لكن الخطر كامن فى أن رجلاً منا ينطق العربية ، ويردد مثل هذه المقولات ، ويجد الحفاوة فى مصر ، وقد نعت أهلها قديمًا زمن الوحدة مع سوريا بأنهم «غربان أفريقيا الجائعة» وإذا واجهنا كلامه نتهم بالعصبية والإقليمية الضيقة ، وهو «المحروس» من عين هذه العصبية والإقليمية !!

لا جديد فيما قاله الرجل فى معرض الكتاب ، فتلك شنشنة قديمة ، وكان المظنون أن تكفكف السن المستعلية من غرب دعاواه فيركن إلى شىء من المراجعة، لكنها «حالة نفسية» تعادى العربية وديوانها ، فتخلط أوراق القصيدة الموزونة والحرة وما يسمى قصيدة النثر ، وكله عند العرب «والفينيقيين» صابون ! .

وخطر هذه الدعوى أنها جمعت العجزة وذوى العاهات والمثوفين (أصحاب الآفة) الذين ليس فى ذرعهم إقامة الكلام وقدمتهم شعراء «المستقبل» ، وفى القريب سيكون القرآن «شعرًا» ربما لأن الوزن غير ضرورى !! .

وقد أحسن الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى فى رده على بعض ما قاله أدونيس فى الندوة وفى الأهرام ، وهو لا يدافع عن حركة الشعر الحر ، وإن بدا هذا لأول وهلة ، ولا عن الشعر المصرى قبل جيله ، بل إنه يدافع عن حركة التاريخ وحركة الإبداع ، دون عصبية عرقية تسد منافذ الفهم ، وقد شفى صدور قوم مؤمنين .

إن هذا «الجهاد» المخلص من أدونيس فى هدم التراث ، وهدم الرموز الكبرى فى مصر والعراق لن يكون باعثه الموضوعية ، ولا الرغبة فى نفى المحاكاة ، بل بواعثه فى نفس الرجل وهى ليست فى خدمة هذه الأمة ولا لغتها ولا شعرها بلاريب ، لكن هذا «الجهاد» كالمصل الذى يكشف عن مناعة جسم الأمة التى غالبت أمصالاً كثيرة فغلبتها ، وهى تلجأ فى لحظات صمودها إلى ما يريد أدونيس نفيه منها ، ولن تلجأ إلى أدونيس ولا إلى شيعته ؛ لأنهم خارج التاريخ وخارج الزمن والمستقبل منه بالذات . والكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح ، لا للتاريخ «الشعوبى» والنقد المثوف .

عُدنا وعاد المهرجان !!

عدنا ، والعود أحـمد ، ولعله يكون أحمد منه فى السنوات القـلائل الماضية ، وأن يستعيد المعـرض زهوه السابق إن لم يكن فى الطوق الزيادة عليه ، وإنى لأراه اليوم وقد اكتمل عقده الثالث ، وهو سن النضج والاستواء ، دون تجاعيد ، ودون ترهل ، نقـول ذلك دون موارية ؛ لأن معـرض الكتاب أخـيرًا ينبغى إعـادة النظر فيه، دون أن نفتـئت على حق المشرف عليه الأخ العزيز الدكتور سمـير سرحان ؛ فالرجل يبذل أقـصى طاقاته ، ولانريد أن نوجه للمعرض نقـدًا قبل أن يبدأ ، بل نريد له إحسانًا كان قد بلغه قبل عشر سنوات مثلاً ، ونود الزيادة . حسن أن يظل المعرض يحمل اسمه «معرض الكتاب» وعليه يكون التركيز على الكتاب وما يتعلق به ، لا أن يفرغ المعـرض من محتواه ، وتزاحمـه فنون أخرى مكانها مـهرجانات أخرى هى به أشبـه ، ولم يبق إلا «السيرك» ليشترك فى مـعرض الكتاب ، ولعل أصحابه يطالبون بهذا الحق وفى هذا الإطـار «الكتاب» تنظم ندوات وأمسيات تدور حوله ، فيعـود للمعرض جلاله ووقاره المفتقـد فى السنوات الأخيرة ؛ لأن المتردد فقد حمـاسه حين وجد «الزفة» طاغيـة ، وتوارى الكتاب، وتنظيم الندوات ينبغى أن يخضع للجنة تتعـدد فيها الآراء لا أن تكون لجنة سئم الناس وجـوهها كل عام لأنها تعرف سلفًا ماذا ترى وماذا تقدم ، وكذلك المدعوون فيها ، وجوه مستهلكة، رأينا بأعيننا كيف ينصرف الناس عنهم ، علينا أن نبحث عن وجوه جديدة - وهى كثيرة ولا تعـرض نفسها فى سوق الإعلام - تقدم جديدًا ومـخالفًا ، وأن نقلل ما أمكن من الوزراء ، حيث نراهم كل يوم فى وسـائل الإعلام ، ومن يشابه الوزراء من رواد المجامع الإعلامية .

يجب أيضًـا ألا تتضـارب مواعـيـد الندوات ، وأن تمتد واحـدة على حسـاب الأخرى، وأن يختـار موعد حسن لأمسـيات الشعر التى خلت أخيـرًا من جلالها واحتـرامها وأصـبحت غاصـة بغيـر الشعراء لغـياب المصطلح الشـعرى وأن تخلو

الدعوات أيضًا من أسماء عربية تطرز بها بطاقات الدعوة ، دون أن تكلف نفسها عناء الاعتذار ، وهى فى أغلبها أسماء محترقة إلا لدى الشلل المنتفعة منها . هل نطمح إلى أن يكون فى المعرض سلطة الضبط القضائى «الحرامية» الكتب ؛ وبخاصة كتب التراث ؛ حيث نجد بأعيننا كتبنا تسرق ، وهذا العمل ليس مسئولاً عنه هيئة الكتاب ، بل لابد من جهة معاونة لها هذه الصفة ، وهل نأمل فى أن ندخل المعرض بالسيارة ، حيث نشترى كتبنا فى «كراتين» يصعب حملها خارج المعرض ، وأن تتخذ فى ذلك إجراءات أمنية تكفل السلامة والأمان ، كما نود أن يفسح المعرض مكانًا لائقًا لأصحاب الكتب القديمة ، «سور الأزبكية» حيث نعثر فيه على كتب نادرة ، وبأسعار زهيدة مقارنة بالأسعار الفلكية فى سرايات العرض، وهذه الكتب القديمة ربما لا تطبع مرة أخرى فى غالب الأحيان ، وهل نطمع فى أن نرى الكتب الأجنبية خاصة من اللغات غير الذائعة معروضة ؛ لأن الكتاب الإسبانى مثلاً يكاد يكون مفتقدًا مقارنة بنظيره الإنجليزى والفرنسى . وأن تمثل دور العرض من الدول الإسلامية ، حيث يكثر بيننا الآن من يقرأون بالتركية والفارسية والسواحلية وغيرها . وأن نرى الكتاب المسموع والمرئى كما نرى فى بلاد أخرى هذه المطامح قريبة التناول والتحقيق ، إذا خلصت النيات وصحت العزائم ، وكان بجوار الدكتور سمير سرحان المستشارون الأمناء ، ونحن نود له التوفيق ، واطراد التقدم ، ونود أن نرى الجلال والتقدير ، الذى كان يغمرنا قبل عشر سنوات ، حين كنا نزور المعرض ، ونحرص على حضور ندواته ، وما ذلك بعزيز .